جامعة تكريت /كلية التربية للبنات / قسم التاريخ

المادة: عرب قبل الاسلام

عنوان المحاضرة: طقوس الحج الى كعبة مكة

استاذ المادة: : أ.د. حنان عيسى جاسم

المحاضرة الثامنة

طقوس الحج الى كعبة مكة

بعدما فرغ إبراهيم، عليه السلام، من بناء الكعبة، أمره الله تعالى بالنداء فى الناس ودعوتهم للحج، "وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ "، وقال ابن كثير فى تفسير الآية، إن إبراهيم نادى يا أيها الناس إن ربكم اتخذ بيتاً فحجوه، ومنذ يومها كتب الحج على الناس فى هذا البيت.

ومع انتشار الأوثان فى شبه الجزيرة العربية على يد عمرو بن لحى الذى أدخل الأصنام إلى الكعبة، تغيرت مناسك الحج، ففى الوقت الذى تجد بعضهم يطوفون حول البيت عراة تجد آخرين يسعون بين الصفا والمروة ويصعدون جبل عرفات ثم يذبحون الذبائح وتلطخ جدران الكعبة بالدماء تقرباً إلى الله.

عظم عرب قبل الإسلام الحج وقد بلغ من درجة تعظميهم له، أن الحاج كان يحظى بالأمن التام، إذ تورد المصادر أنهم كانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج، تقلد قلادة من لحاء شجر الحرم، دلالة على ذهابه إلى الحج، فيأمن حتى يأتي أهله؛ فإذا أراد العودة عاد مقلدا بلحاء الشجر، فلا يعرض له أحد بسوء؛ وهو ما سيبقى إلى أن "فتح" المسلمون مكة حيث نزل الأمر بمنع دخول المشركين مكة.

لم يكن حج عرب قبل الإسلام إلى مكة وحدها، بل كان إلى محجات عديدة أخرى، اذ كان يحج كل قوم إلى الكعبة التي قدسوها وكانوا يتقربون إليها ويضعون أصنامهم فيها، ويذبحون عند أصنامها ويطوفون حولها ويلبون تلبية الصنم الذي يطوفون حوله. من أشهر الكعبات المقدسة الأخرى التي عرفت بالحج عدا مكة، كان هناك بيت اللات في الطائف، وبيت العزى على مقربة من عرفات، وبيت مناة وبيت ذي الخلصة وبيت نجران، أما الاماكن المقدسة عند العرب، فأشهرها غير البيت الحرام والتي كانت ضمن طقوس الحج، نجد عرفة ومنى والمزدلفة والصفا والمروة، ومواضع أخرى كان يقصدها الناس لقدسيتها أو لوجود صنم بها.

ان طقوس الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج، بل كانت تختلف باختلاف القبائل، إذ انفردت قريش بأمور من أمور الحج واعتبرتها من طقوس حجها، فيما تميزت قبائل أخرى بطقوس اخرى.

وعظم عرب قبل الإسلام الحج ، وقد بلغ من درجة تعظميهم له، أن الحاج كان يحظى بالأمن التام، إذ تورد المصادر أنهم كانوا إذا خرج أحدهم من بيته يريد الحج، تقلد قلادة من لحاء شجر الحرم، دلالة على ذهابه إلى الحج، فيأمن حتى يأتي أهله؛ فإذا أراد العودة عاد مقلدا بلحاء الشجر، فلا يعرض له أحد بسوء؛

عرف الشهر الذي يقع فيه الحج بـ"شهر ذي الحجة" وبـ"شهر الحج"، وهي التسمية التي لازالت حتى الآن في التقويم الهجري، وكانت أشهر الحج عندهم حرما، وهي شهر ذو الحجة، والشهر الذي قبله والذي بعده، كما كانوا يحرمون شهر رجب أيضا ويسمونه شهر الله الأصم، أي الذي لا تسمع فيه قعقعة السلاح، فكانوا في هذه الشهور الأربعة يلقون السلاح ولا يغزو بعضهم بعضا.

كان القتال يتوقف في الأشهر الحرم، ليشد العرب رحالهم من كل مكان إلى محاجهم، وخصوصا مكة، حيث ينزل من عند مشارفها ويقضون أياما في البيع والشراء، إذ كانت مكة آنذاك بمثابة سوق عالمية تعج بأنواع السلع المختلفة المجلوبة من دول العالم القديم، كما يخصص العرب بعض أوقاتهم للتعارف والسمر، ومن ثم يقصدون سوق عكاظ التي كانت ميدانا للمبارزة الشعرية والتفاخر بالأنساب، ومحكمة يفصل وجوه العرب فيها في الخصومات، فإذا انتهوا من سوق عكاظ اتجه منهم من أراد ليقضي حجه حسب الطقوس التي يتبعها.

لم يكن "الحمس"، وهم قريش، يحضرون عرفة، وإنما يقفون بالمزدلفة، ولما رأى أحد الصحابة رسول الله واقفاً بعرفة تعجب وأنكر منه ما رأى لأنه من الحمس، وما كان يظن أنه يخالف قومه فى ذلك، فيساوى نفسه بسائر الناس ،فنزلت الآية الكريمة "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله إن اللّه غفور رحيم" فشمل ذلك الجميع.

أول ركن من طقوس الحج قبل الإسلام هو الطواف، وكان بعض العرب يطوفون حول البيت عرايا دون ملابس، رجالاً ونساءً، حيث كانوا يكرهون أن يطوفوا فى ثياب عصوا الله فيها، فكانوا يخلعون ملابسهم فإذا انتهوا من الطواف ارتدوا تلك الملابس، ثم صنعت قريش ملابس مخصصة للحجاج، عبارة عن مآزر غير مخيطة، وكان من لا يقدر على شراء تلك المآزر يطوف عرياناً،

وظلت تلك العادة موجودة حتى فتح مكة. وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانً. ثم السعي اخذ العرب ذلك عن السيدة هاجر أم نبى الله إسماعيل، والتي سعت بين هذين الجبلين اللذين يقعان على مشارف مكة باحثةً عن الماء لطفلها، قبل أن يرسل الله تعالى جبريل عليه السلام الذى ضرب الأرض فتفجرت المياه من بئر زمزم، فكانوا يفترشون أصنامهم بين الصفا والمروة لبيعها للحجيج فراجت تجارة الأصنام في موسم الحج، وبعد الإسلام تحرج المسلمون من ممارسة تلك الشعيرة كما يفعل المشركون، فنزل قوله تعالى، "إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما" لرفع الحرج عنهم.

اما الوقوف بعرفة فقد روى المؤرخون أن العرب، من غير أهل قريش، كانوا يقفون بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة، ومنه تكون الإفاضة إلى المزدلفة ثم منى، وعن زمعة عن سلمة ابن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال، "كانوا قبل الاسلام يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا."

أما عن التلبية التى كانوا يرددونها فإنها وإن اتفقت فى مضمونها إلا أنها اختلفت ألفاظها باختلاف القبائل، فنجد قبيلة جرهم مثلاً تردد عبارات "لبيك مرهوبا وقد خرجنا والله لولا أنت ما حججنا.. مكة والبيت ولا عججنا، ولا تصدقنا ولا تحججنا"، أما خزاعة فكانت تردد، "نحن من بعدهم أوتاد، نحن ورثنا البيت بعد عاد، فاغفر فأنت غافر وهاد"، واعتادت قريش ترديد "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك."

والهدى هو ما يذبحه الحاج بعد الانتهاء من الحج، تقربا إلى الله عز وجل، واعتاد العرب ذبح الحيوانات وتقديمها قربانا، وذكر المؤرخون أنهم اعتادوا ذبح الحيوانات تيمنا بنبى الله إبراهيم حينما اختبر ربه إيمانه بذبح ولده قبل أن يفديه بذبح عظيم، وحرصوا على وضع السوار فى رقاب تلك الحيوانات وتركها سائبة لا يعترضها أحد لأنها محرمة، وبعد ذبحها يلطخون الكعبة بالدماء، وتقدم لحومها للفقراء.